اجتهادات إسلامية معاصرة في أصول السلام العالمي

إبراهيم البيومي غانم

ارتفاع أصوات جماعات الغلو والتطرف المنسوبة للإسلام يكاد يترك انطباعا واحدا عن المسلمين في عمومهم هو: أن «السلام» لا يعني المسلمين في شيء، وأنهم ما خلقوا إلا للحرب والضرب، والمفارقة المروعة هنا هي شيوع هذا الانطباع الخاطئ في اللحظة نفسها التي باتت أكثرية ضحايا العنف والاحتراب من المسلمين أنفسهم. وهنا محاولة لتقصي بعض الاجتهادات الإسلامية المعاصرة التي ظهرت في شأن أصول السلام العالمي في فترة ما بين الحربين العالميتين، واستمرت في الظهور إلى ما بعد انتهاء الحرب الثانية بسنوات قليلة.

تنصّ آيات القرآن المجيد، وأحاديث النبي الكريم صلى الله عليه وسلم على أن البشر جميعا ينتسبون إلى أب واحد وأم واحدة، ويجمعُ قدماءُ علماء الإسلام ومحدثوهم على هذه الحقيقة، ويعتبرونها مُسلمة من المسلمات الراسخة غير القابلة للدحض عند ذوي الفطرة السليمة. وعلى رغم بساطة هذه الحقيقة وقوتها؛ إلا أن كتابات رواد الإصلاحية الإسلامية الأولى حتى منتصف القرن الرابع عشر الهجري/ الربع الأول من القرن العشرين؛ تكاد تخلو من الإشارة إليها ربما باعتبارها مسلمة لا تقبل النقاش، أما رواد التحديث وأصحاب الدعوات «الحداثية»، فيتجاهلونها أحيانا، ويذهبون إلى عكسها أحيانا، وبعضهم راح يقلد بعض الحداثيين الأوروبيين في التأصيل لاختلاف الأعراق البشرية وعدم تماثلها في الخلق والأخلاق والحقوق والواجبات. وكان القرن التاسع عشر شهد موجة من الكتابات الفلسفية والاجتماعية والبحوث البيولوجية الحداثية التي تزعم عدم مساواة البشر في أصل الخلق، وكان الفرنسي آرثر دي جوبينو أشهر من تزعم هذا الاتجاه في كتابه «مقال في تفاوت أجناس البشر».

كانت عقودُ النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري (الثلث الأول من القرن العشرين الميلادي تقريبا) مسرحا لظهور النزعات العنصرية المتطرفة (النازية والفاشية)، والقومية المتشددة (الطورانية، والفارسية، والعربية، والصقلبية، والسلافية)، والاستعلائية المتكبرة على الغير (شعب الله المختار)، والطبقية (البروليتاريا). وكانت هذه النزعات من أسباب الحروب الدامية التي راح ضحيتها ملايين من البشر، في حربين عالميتين مدمرتين، وفي ما بينهما.

أما تلك الحقيقة التي تؤكدُ انتساب البشر جميعا إلى أصل واحد في الوعي الإسلامي فلم تكن كافية -بحد ذاتها كنصوص واردة في الكتاب والسنة- في مواجهة تلك النزعات، من دون تقديم قراءة معاصرة لها، ومن دون صوغ خطاب فلسفي وفكري وسياسي في شورها. ومن ثم كان لا بدّ من إحيائها وتوظيفها في الخطاب العام، وفي مقارعة انتصار تلك النزعات العنصرية التي أسهمت بالفعل في تمزيق وحدة الأمة الإسلامية أولا، وباتت تهدد أيضا البشرية كلها بمزيد من الصراعات والحروب الدامية، التي تهلك الحرث والنسل وتنشر الفساد في الأرض؛ على نحو مضاد لغايات الإسلام ومقاصده في أن تنعم الإنسانية بالأمن والسلام والاستقرار والعمران.

وكان من أخطر الأفكار الرائجة آنذاك أن حضارة الغرب الحديثة، هي مستقبل العالم؛ بما فيه الشرق وشعوبه الإسلامية. ومثلت هذه الفكرة تهديدا مباشرا يستلبُ عالمية «الإسلام»، ويغلق الطريق أمام عموم رسالته للإنسانية، ويشعل نيران العنصرية، وقاد بعض المستشرقين مثل فرانتز بول، وجاستون وايت، وستدورس حملات ضارية للتأكيد أن الإسلام «رسالة للعرب» من دون غيرهم، وأن خطاب الإسلام خطابٌ محلي، وليس عالميا. وإلى جانب ذلك: كانت هناك نزعة القومية والعنصرية والفوضوية الشيوعية؛ تهدد «عالمية الإسلام» أيضا تهديدا عمليا بتمزيق وحدة أمته، وتفتيت الروابط العقيدية والنفسية والتاريخية والمصلحية بين شعوبه. وكان هناك أيضا خطرٌ ثالث تمثل في صعود نزعات الاستعلاء القومي وادعاءات التفاضل بين البشر على أسس الانتماء العرقي أو الديني (النازية- والفاشية- وشعب الله المختار)، وهي نزعات تتناقض مباشرة وعلى طول الخط مع تأكيد الإسلام أن البشرَ جميعاً سواسية وأصلهم واحدٌ.

سعى دعاة الإصلاحية الإسلامية الثانية خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر هجري/ ثلاثينات القرن العشرين تقريبا، إلى التذكير بتلك «الحقيقة»، والتنبيه إليها في تلك الفترة، وقد دأبوا على التعبير عنها بعبارات مقتضبة حيناً، ومفصّلة حيناً. وانتقدوا مفهوم «القومية» باعتبارها تعني عصبية الدم وعنصرية الجنس، وأوضحوا أن هذا المعنى لا يصلح كأساس لبناء الوحدة، أو لتحقيق السلام العالمي، ونسوا أن الناس لآدم، وآدم من تراب، وكانت لديهم نظرات ثاقبة في شأن الأخطار التي تنطوي عليها النزعات العرقية والعنصرية، ولم يغفلوا في الوقت نفسه عن أن البيئات الطبيعية والحوادث الكونية جعلت لكل أمة خصوصيتها ومميزاتها العنصرية. وذهب عدد منهم من أمثال طنطاوي جوهري، ومحب الدين الخطيب، وعبد العزيز جاويش، وشكيب أرسلان، ومصطفى عبد الرازق، وجار الله موسى، والطاهر بن عاشور، وعبد الحميد بن باديس، وحسين الجسر.... إلخ إلى ما مفاده أن الرقي الفكري، والتقدم النفسي، والتغلب المادي من الإنسان على عناصر الطبيعة وقواها ستؤدي بالناس إلى تقدير هذه الصلة في ما بينهم، وستجعلها يوما من الأيام مبدأ لهم، وجامعة تجمعهم. ويشهد على ذلك ما نشروه من بحوث ومقالات في مجلات تلك الفترة وبخاصة مجلة «الفتح»، و«المنار»، و«البصائر»، و«الشهاب».

وغداة انتهاء الحرب العالمية الثانية أسرع هؤلاء إلى تقديم قراءة متعمقة لكيفية إدراك السلام العالمي انطلاقا من أصول الوحدة الاجتماعية للبشر، فقد قرر الإسلام الحنيف أن ثمة أصلين يربطان كل إنسان بكل إنسان بصرف النظر عن اختلاف الألوان والأوطان، أولهما هو الأدمية التي تنسب البشر جميعا إلى أب واحد وأم واحدة، وثانيهما هو الصلة الربانية التي تجعل هؤلاء البشر جميعا عباد الله الواحد القهار، وأكرمهم وأعرفهم به وأنفعهم له أنفعهم لهم قال تعالى: ﴿يا أيها النّاسُ إنّا خلقناكم مِن ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنّ الله عليمٌ خبيرٌ﴾ (الحجرات:13). وبعد سنوات قليلة تحقق ما توقعوه- جزئيا ونظرياً على الأقل- وذلك في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في عام 1948، الذي نص على وحدة الجنس البشري ومساواة البشر في الحقوق والواجبات. وأكد أن أول خطوة في طريق بناء السلام العالمي هي إقرار وحدة الأصل الاجتماعي للبشر جميعاً.

كان رواد الإصلاحية الإسلامية في تلك الفترة يطرحون أفكارهم عن السلام العالمي ضمن رؤيتهم الأشمل لـ «عالمية الإسلام» ذاته، وفي إطار المهمة التي يتعين على الأمة الإسلامية أداؤها للإسهام مع الأمم الأخرى المحبة للسلام في إنقاذ البشرية من الأحقاد العنصرية وآثارها التي تهلك الحرث والنسل. وأعادوا التأكيد مرارا وتكرارا أن الإسلام قرر وحدة الجنس والنسب للبشر جميعا: فالناسُ لآدم، ولا فضل لعربي على أعجمي، وأن حكمة التقسيم إلى شعوب وقبائل إنما هي التعارف لا التخالف، والتعاون لا التخاذل، والتفاضل بالتقوى والأعمال الصالحة التي تعود بالخير على المجموع والأفراد. وإن الله تعالى يطالبُ عباده جميعا بتقرير هذه الحقيقة ورعايتها، والشعور بحقوقها، والسير في حدودها، وأن القرآن الكريم يقدم هذه المعاني جميعا في بيان ووضوح، فيقول: ﴿يا أيها النّاسُ اتقوا ربّكمُ الذي خلقكم مِن نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالا كثيرًا ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إنّ الله كان عليكم رقيبًا﴾ (النساء:1). ويقول: ﴿يا أيها النّاسُ إنا خلقناكم مِن ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنّ الله عليمٌ خبيرٌ﴾ (سورة الحجرات:13). ويقول النبي محمد صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع: «إن الله قد أذهب عنكم عبيّة (بكسر العين وسكون الباء وفتح الياء) الجاهلية وتعظمها بالآباء والأجداد. الناسُ لآدام وآدم من تراب». ويقول: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية».

ذلك هو حب حصيد اجتهاد كبار رواد الإصلاحية الإسلامية الثانية، ولربّ سائل يسأل: وما الجديدُ الذي قدموه والمسألة واضحة وضوح الشمس في آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم؟ إن الجديد لم يكن في إقرار «الحقيقة» التي تحدث عنها القرآن وقررتها الأحاديث النبوية بكل تأكيد؛ وإنما هو في المبادرة إلى الكشف عنها والتذكير بها، وصوغها في خطاب فكري عام، وتنبيه الأذهان والعقول إليها في مواجهة الأفكار الداروينية- والداروينية الاجتماعية تحديدا- التي كانت رائجة في أوساط النخب الثقافية والفكرية من جهة، وفي مواجهة أفكار أمثال آرثر دي جوبينو، مؤلف كتاب «مقال في تفاوت أجناس البشر». وكتاب «الريتسانس»، وجوبينو هذا هو نفسُه الذي أرسى أبشع نظرية عنصرية في العالم الحديث، وذهب إلى أن الجنس الأبيض، والآري تحديدا، لا يشترك مع بقية الأجناس في أصل واحد، وأن أبناء الأبيض/ الآري وحدهم هم الآدميون، وغيرهم لا يمتون للآدمية بأدنى صلة وتأثر به قادة الأنظمة الفاشية والنازية والعنصرية.

لم تكن آراء جوبينو ونظرياته في «عبادة الأجناس» مبنية على أسس علمية قوية، ومع هذا انتشرت في سائر بقاع العالم الأوروبي وفي مناطق أخرى خارجه؛ من منتصف القرن التاسع عشر، إلى فترة ما بين الحربين العالميتين تقريبا. وتوطدت أفكاره عن الاستعلاء العنصري؛ بخاصة أنها لم تجد أفكارا قوية مناهضة لها، فالكنيسة الغربية كانت باتت عاجزة عن القيام بدور فعال في مواجهتها في أوروبا على الأقل، وأضحى القانون والعدالة مجرد شيئين نظريين في سياق احتدام المنافسات بين القوى الاستعمارية، وبات الفنُ للفن، لا للتهذيب ولا للتنوير، وأمسى العطف على الفقراء وهما عاطفيا؛ ولم يعدْ يقف أمام أفكار مثل أفكار جوبينو شيء، أو هكذا ساد الاعتقاد في الأوساط الثقافية والسياسية.

وكانت المشكلة المركزية لرواد الإصلاحية الثانية هي أن مثل تلك الأفكار وجدت طريقها إلى مجتمعات الأمة الإسلامية، وتسربت على يد النخب التغريبية والقومية العلمانية في ما بين الحربين العالميتين، ومن هنا تتضح أهمية المبادرة في تلك الفترة بخطاب إسلامي أصيل يتصدى لها، ويذكّر ببديهية وحدة الجنس البشري وانتسابه لآدم وتكريم الله لكل بني آدم، وأنهم جميعا سواسية، ونبذ الظلم والعدوان، وأن الإقرار بهذه الأصول هو الخطوة الأولى التي لا غنى عنها نحو بناء صرح السلام.

عن «الحياة» اللندنية

عبد الحميد بن باديس

مصطفى عبد الرازق

الطاهر بن عاشور

الرجل بين الخيانة والوفاء

د. إيناس عمر

صباحكم زهرة برية تستقي رونقها من حضوركم الأنيق ..
اليوم سنتطرق في حديثنا الشائك للرجل بشكل عام ، ونخص بالذكر الرجل المصري .
ربما أتعرض للهجوم والاعتراض على وجهه نظري تلك ، ولكن لاعتبارات الجنس المختلف ، سأحاول أن أكون على قدر كبير من الإنصاف.
فأسوأ عيوب الرجل على الإطلاق ، هي عدم تحمله المسؤولية .. أنا لا أهاجم الرجل ، بقدر ما أحاول إسداء النصح له .
لم يخون الرجل ؟
سؤال في منتهى القسوة ، حين تناقشه المرأة وتحاور نفسها ..
كيف تواجه نفسها وتراجعها وتحارب أفكارها ، لتهتدي لمنطق متبلد مفعم بالألم ؟! هل هو تعطش منه للغريزة ؟! أم لمتعة التجربة ؟
أم مجرد ملهاة ووقت فراغ لا يحسن استخدامه ؟
أم حقا افتقاد للحب ؟
الخيانة بوجه عام هي كسر حجب الثقة بين كيانين ،
وحين تسقط الثقة يهوي كل شيء ..
أما الإجابة فهي تعود للتربية في الأساس ، وعدم تحمل الرجل لمسئوليته كاملة، وإلقاء العبء على المرأة ، سواء في صورة الأم والأخت والزوجة .
فالرجولة في حد ذاتها صفة ،
ليست هي نوعا أو جنسا .
كم من رجل يظن أن واجبه الأوحد جمع المال وتوفيره ، وجرت العادة أن تعمل المرأة بالمنزل ، وفي الحقل تساعد زوجها .. هي كآلة لا يحق لها أن تعترض أو تكل أو تعترض ، ظنا أنها خلقت للطاعة ، كتابعة هي ..
وما خلقنا لذاك الغرض ..
أجمع علماء الدين أن الله كرم الزوجة ، وجعل كل دورها هي أن توفر لزوجها السكن والمودة والرحمة ، ولم يلزمها بالخدمة ، وبالرغم عن هذا فهي تقوم بذلك عن طيب خاطر ، مما دفع الرجل للاعتقاد أنه حق مكتسب تحاسب عليه .
وهذا قدر كبير من الظلم وقع على المرأة المصرية ، فنجد الزوج يغط في نوم عميق ، بينما تقوم هي بالعمل وتجهيز الطعام وإحضار طلبات البيت ،
وأخذ الأولاد للدروس ، وأحيانا الذهاب بهم لعيادات الأطباء للكشف عنهم !
هكذا تبدلت الأدوار
وتحملت المرأة مسؤولية ذكورية بحتة دفعتها لأن تخشوشن ،
وفقدت أجمل صفة خلقنا الله بها ضعفنا ..
تلك الميزة التي تمنح الذكر رجولته ،
وشعوره بالتفوق والقوامة ،
وتراجعت الرقة لديها ، وحلت محله القوة ،
وتحت وطأة ضغوط الحياة على المرأة ، وتحميلها أعباء ليست لها ، نجدها تكتسب روحا جديدة خشنة قاسية ، وتفترس رغبة الرجل الجامحة في الراحة ، ويلقي عليها كل الأعباء مع التعنيف لها ..
وتظل المرأة تدور في حلقة مفرغة ،
وتهمل نفسها دون قصد ..
وهنا يبدأ الرجل في التذمر ، شعوراً منه بالافتقاد لأنوثة المرأة ، التي انتزعها هو منها انتزاعا بأنانيته المفرطة ، وطبيعته في التطلع لما لا يملكه ..
يبحث عن امرأة في طور البراءة ،
لتمنحه شعور القوة الذي يستهويه ،
ليبحث عن نزوة تنعش رجولته ،
فتودي باستقرار الأسرة وتهدم الثقة ..
وهنا يستوقفني السؤال :
كيف أن نظرة المجتمع لخيانة الرجل ،
تلقي باللوم على المرأة ، ظنا أنها لم تؤد دورها المنشود نحوه ، في الإشباع لغض البصر ..
وهذا افتراء بين ، ويكيل لها المجتمع الاتهامات لتظل حبيسة احساس موجع بالذنب ، وتبدأ في الاهتمام بنفسها وصقل ذاتها لتتفادى أخطاء الرجل ..
بينما يخرج الرجل من هذا المأزق كالشعرة ، وقد زاد على زوجته أعباء أخرى حتى ترضيه وتحافظ على كيان أسقطه هو ..
كيف نحاسب على ذنب لم نقترفه ؟
هذا هو الجحيم بعينه .
أضحى الآن الأمر واجبا وفرضا ،
وبمرور الوقت تنظر المرأة لذاتها في المرآة ،
فهي مطالبة أن تكون رجلا وامرأة بذات الوقت.
كيانين في كيان واحد ..
وتصل لحافة الانهيار أو يعتريها اليأس ،
كل هذا نتاج إساءة تربية الرجل ،
وعدم فهم الدين والعادة ..
لننظر ماذا نزرع في أبنائنا ؟ كيف ننشيء جنسا من أشباه الرجال ، لا يدري شيء عن مسئوليته تجاه المرأة ؟
كيف يجب أن يصونها ويوقرها ؟
أخفق في معرفة وظيفة المرأة ، بل لم يدر لم خلقت هي ؟
و كيف يؤذيها بكلتا يديه ويسحق أنوثتها ثم يدعي أن خيانته بسببها ؟
هذه هي الأكذوبة التي يتمسك بها كل أشباه الرجال ،
وينسى الواحد منهم أن دينا يحاسبنا على أفعالنا ..
الأمر غير منوط إطلاقا بتقصير الآخر ، هذا لن يبيح خطاك ..
كم الألم الذي يعتري النساء حين تتعرض للخيانة ، أشبه بتحطيم مرآة ، ثم إعادة جمع أجزائها ..
جرب عزيزي الرجل أن تنظر لنفسك في تلك المرآة مجددا ، ستجد نفسك مشوها ..
هكذا صنعت في روحها ، آدميتها ..
فالمرأة تتاج اهتمامك ، فإما أن تزهر وإما أن تذبل
نعم صدق المصطفى «عليه الصلاة والسلام» ،
حينما قال عنا «قوارير» ..
ألا يسعدك أن تظل كأسك بلا خدوش،
وانعكاس صورتك في المرآة أكثر حياة ؟
كيف شوهت التربية والعادة وعدم اتباع الدين ، جيلا من الذكور ، لا يدري عن الشرع سوى مثنى وثلاث ورباع ..
ويتناسى عمدا «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم» ..
ويتجاهلون «ولا تنسوا الفضل بينكم» ..
أما «ما أكرمهن إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم» ، فهو حديث غضوا عنه البصر !
عزيزي الرجل ..
أنت القوام أنت الذي تهدم بيتا أو تحفظه ..
تذكر قبل أن تخون ،
أنك المسؤول الأول عن خيانتك ..
إلقاء اللوم وعدم تحملك مسؤولية خطئك سيجعل الألم والأذى عائدا إليك لا محالة ..
كيف نتكر ذنوبنا لهذا الحد ونتعايش معها حد الفقد ؟
ونستمر في إنشاء جيل آخر بلا مسؤولية ، ولا إدراك لدوره الذي خلق له ؟
كيف نعيد الأمور لنصابها ، إذا كان هذا التهاون يلقى صدى لدى تلك الفئة من أشباه الرجال ؟
تذكر عزيزي الرجل : قدوتك نبينا محمد «عليه الصلاة والسلام» ، كان في خدمة أهل بيته ..
فهو القائل «خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي» ..
صدقت يا سيدي يا رسول الله
لماذا نصنع الألم بأيدينا ثم نعود لنبكي على اللبن المسكوب ؟
وهمسه في أذنك عزيزتي المرأة :
ما خلقت أنت إلا لتكوني ملكة على عرش قلب الرجل ..
أشعريه بذاتك لتفرض ذاتك نفسها على من حولك
لا تظني أنك الملومة على خيانة الرجل ، إذا أديت دورك فلا تجلدي نفسك على إثم اقترفه غيرك ..
وأخيرا ارفضي أن تكوني رجلا وامرأة بكيان واحد ..
تمردي على ابتزاز المجتمع واستغلاله لك ،
تعاملي كامرأة و لا تحملي نفسك فوق طاقتها ..
كفل لك الشرع حقوقا لا تغفليها ، وثقي أنها تصونك ، اعلمي ما لك وما عليك ، وطالبي بكل حق لك بدلال الأنثى الواثقة ..
احتفظي بنعومتك وسحرك وأنوثتك ،
ليعود الرجل ذاك القوي الخشن العطوف الذي يسلب ضعفك لبه ..
همسه أخيرة في أذنك عزيزي الرجل :
الخيانة ضعف فهي أشبه بالغوص في مستنقع من الوحل ، كلما انزلقت به لن يكون بوسعك العودة مجددا بنقائك السابق ..
طالبها بأنوثتها ولكن ،
أولا كن أنت ذاك الرجل الذي يجبرها بحبه واهتمامه ودعمه أن تكون ..
ودوما ينتهي حديثنا لنصله بآخر ،
وإلى الملتقى بين ردهات عقلي و حرفي الثائر!
و «حديث شائك»

عزلت أحدهم عن منصبه

هذا ما فعلته أخطاء لغوية بأصحابها

عهد فاضل

في كثير من المصنفات العربية التي تعنى بالتراجم أو بعلوم اللغة أو المعاجم، تظهر الإشارة إلى اللحن في اللغة العربية، كعيب يرافق صاحبه، كما لو أنه جزء من سيرته الشخصية لا يفارقه، خصوصاً إذا ما تم تثبيت واقعة ارتكابه خطأ في اللغة، في أكثر من كتاب.

واللحنُ في اللغة العربية، اتفق عليه كاسم لأي خطأ نحوي أو لغوي، فيقال لمن أخطأ بالنحو: «لحنتَ» ولمن أخطأ باللغة: «لحنتَ». ويشمل اللحن أوسع طائفة أخطاء ترتكب في اللغة، حتى أخطاء اللفظ التي تشمل إنقاص حرف من كلمة أو زيادته فيها.

ويشمل اللحن في اللغة، كل ما لا يتفق مع الإعراب والنطق السليم والنحو والصرف. ويعرّف اللحن في اللغة، بأنه العدول عن الظاهر، والخطأ أو الميل، وأنه ميل بالكلام عن سننه. ويعرّف على أنه مخالفة الإعراب، وترك الصواب في القراءة والنشيد.

ولا يكاد مصنّف عربي قديم، في اللغة والنحو والصرف والتراجم، إلا ومرّ على اللحن تعريفا أو سردا لوقائعه.

إذ كان اللحن خطأ دفع ببعضهم للاستغفار، كما لو أنه ذنبٌ، ودفع بآخرين للانسحاب من مجلس، وجعل آخرين يشار إليهم بالبنان، وطعن على بعضهم بسببه، وعُزل من لحن في العربية، عن منصبه، وكذلك قيلت بحق اللحّان، في ما نقلته الكتب، كلمات لا يمكن نقلها أو اقتباسها.

لماذا سمّي مقام الإمام في المسجد محرابا ؟

ولعل ما رواه «لسان العرب» عن سبب تسمية المحراب محرابا، يوضح هيبة اللغة العربية والخوف من ارتكاب أخطاء فيها. فهو يقول: «قيل إن المحراب سمّي محرابا لأن الإمام إذا قام فيه، لم يأمن أن يلحن أو يخطئ!».

وجاء في «معجم الأدباء» لياقوت الحموي، أن الخليل بن أحمد الفراهيدي، سمع أيوب السجستاني يحدّث بحديث، فلحن فيه، فقال: «استغفر الله». ثم يفسّر: «يعني أنه عدّ اللحن ذنباً».

وكان الأعرابي إذا دخل سوقاً وسمع فيها لحناً، يقول: «العجب، يلحنون، ويربحون؟!».

خليفة أموي: أخرجوا هذا اللحّان عنّي!

ومن لطائف المنقول في اللحن، ما ورد عن الحسن البصري عندما جاءه رجل وقرع عليه، قائلاً: «يا أبو سعيد»، وفيها لحن، فلم يجبه البصري، فكرر الرجل وقال: «أبي سعيد» وفيها لحن، أيضا. فقال له البصري: «قل الثالثة، وادخل!». وقصد بالثالثة «يا أبا سعيد»، وهي الخالية من اللحن.

وفي حادثة، كان الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، في مدينة دابق. فتقدّم منه رجل وقال: «يا أمير المؤمنين، إن أبينا هلك وترك مال كثير، فوثب أخانا على مال أبانا فأخذه». فغضب الخليفة الأموي لفداحة اللحن الذي ورد في كلام الرجل، فقال له: «فلا رحم الله أباك ولا نبح عظام أخيك، ولا بارك الله لك فيما ورثت». ثم يأمر الخليفة بإخراج الرجل من مجلسه: «أخرجوا هذا اللحّان، عنّي!».

لحن فعزل عن منصبه!

ولحن بعضهم، في اللغة العربية، فعزل رئيسه عن عمله، عقوبة له على ما كان يعتبر خطأ لا يغتفر، وهو الذي كان يستغفر فيه السجستاني.

ويورد ياقوت الحموي، أن طاهر بن الحسين، قدم والعباس بن محمد بن موسى، على الكوفة، فأرسل العباس كاتبه إليه، وقال لطاهر: «أخبك أبي موسى يقرأ عليك السلام»، وفيها أكثر من لحن. فسأله طاهر: «وما أنت منه؟» فأجابه: «أنا كاتبه».

وتنتهي الرواية بصرف العباس بن محمد بن موسى عن الكوفة، لأنه «لم يتخذ كاتبا يحسن الإباء عنه».

وكان معاوية بن بجير، عامل البصرة، «لا يلحن»، ولمّا مات، جاء رجلٌ يخبر نعيه قائلا: «مات بجيراء والصحيح بجيرٌ، فقيل له: «لحنتَ، لا أمّ لك».

وينقل الحموي أن سعيد بن سلم قال: دخلتُ على (الخليفة العباسي) الرشيد فبهرني هيبة وجمالا، فلمّا لحن، خفّ في عيني.

وينقل حادثة أخرى عن أبي جعفر المنصور، عندما تحدّث وفي حضرته أعرابي. فلحن المنصور في كلامه، فصرّ الأعرابي أذنيه (متضايقا من لحن المنصور). فتحدث المنصور ولحن الثانية، فقال الأعرابي: «أف لهذا. ما هذا؟!». ثم تكلم المنصور فلحن الثالثة. فقال الأعرابي: «أشهدُ لقد وليت هذا الأمر، بقضاء قدر».

لحن السقّاءات

وبعث الحجاج إلى والي البصرة، كي يرسل له عشرة رجال. فاختار رجالا، منهم كثير بن أبي كثير. ودخل كثير عليه، فسأله الحجاج: «ما اسمك؟» فأجابه: «كثير». فسأله الحجاج: «ابن من؟» فقال كثير: «خفتُ إن قلتها بالواو لم آمن أن يتجاوزها». فأجابه: «أنا ابن أبا كثير». وفيها لحن لأن الصحيح ابن أبي. فقال الحجاج: «عليك لعنة الله، جيئوا في قفاه».

ودخل خالد بن صفوان التميمي على بلال بن أبي بردة، فحدّثه ولحن. ولمّا كثر لحنه على بلال، قال له: «يا خالد، تحدّثني أحاديث الخلفاء، وتلحن لحن السقّاءات!». والسقّاءات نساء يسقين الماء للناس.

وفي حادثة دخل الكسائي على قوم، وقال لهم: «قد عبيتُ». فقالوا له: «أتجالسنا وأنت تلحن؟!». فقال: «وكيف لحنتُ؟». فقالوا له: «إذا كنتَ أردتَ من انقطاع الحيلة والتحيّر في الأمر فقل عبيتُ، وإن كنتَ أردتَ من التعب فقل أعييت». وتقول الرواية إن الكسائي ذهب بعدها ليتعلم النحو.

أسباب ظاهرة اللحن في اللغة العربية

ويحدد الباحثون ثلاثة أسباب رئيسة، أدت لحصول ظاهرة اللحن في اللغة العربية، كاختلاط العرب بغيرهم، وعمل غير العرب من العجم، بعلم اللغة والنحو والرواية، وإهمال التنقيط والتشكيل، حسب ما جاء في كتاب «اللحن اللغوي وآثاره في الفقه واللغة» لمحمد التمين.

ويسرد تمين أسماء بعض المصنفات العربية القديمة، التي عكست هاجس اللغويين والنحويين بتخليص العربية من ظاهرة اللحن، فكتبت لأجلها مؤلفات عديدة، منها كتاب «إصلاح المنطق» ليعقوب بن إسحاق الشهير بابن السكيت، وكتاب «لحن العامة» لسهل بن محمد السجستاني، وكتاب «ما يلحن فيه العامة» لمعمر بن المثنى، ومثله للفرّاء، يحيى بن زياد، ومثلهما كتب المازني، وهو بكر بن محمد، وكتاب «التنبيه على حدوث التصحيف» للأصفهاني، حمزة بن الحسن، وكتاب «أدب الكاتب» لابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، وكتب أخرى كثيرة.

نقلا عن «العربية نت»